الفصل الثالث

خطوات وئيدة فى طريق الأمل

الخروج للحياة وخوف الأم

مرت الأيام والشهور، وبدأت العلاقة والحميمية تتوثق بين الأم ووليدها الذى يراها دائمًا أمامه، وكانت الأم تزورها السكينة أحيانًا ثم يعاودها القلق يقُض مضجعها، خصوصًا عندما يكون زوجها عنده نوبتجية وسيقضى الليل بعيدًا عن البيت فى الجيش، وتسأل نفسها دائمًا وتلح عليها بهذه الأسئلة: كيف يخرج من البيت؟ وكيف سيستقبله الناس؟ وكيف سيقضى حاجاته وما يلزمه كما يفعل الأطفال؟

وكانت أمى عندما تريد أن تخرج من دائرة الأسئلة تحملنى، ويمشى وراءها ابناها حسن وياسر وتذهب بنا إلى بيت جدى محمد مرسى، وما أن نصل حتى يقام الفرح بقدوم الأطفال. وكان بيت جدى به صالة طويلة ومستطيلة يمرح فيها أخواى، وتترك أمى رضا يتنقل بين أخواتها الأربعة كُل منهن تريد أن تستأثر به وتحاول كُل منهن أن تجعله يضحك أو يبتسم وإذا فعل طاروا به فرحًا، وكانت أمى تحكى أن جدى هذا

الرجل الطيب كان يأخذنى لأجلس فى حِجْره ويطيل النظر إلى وجهى ثم ينظر إليها ويحاول أن يسعدها ويطمئنها ويقسم لها بالله أنه سيبارك لك فى أولادك وخاصة رضا، وكان ينظر إلىَّ ويظل يمطرنى بوابل من الأوصاف الجميلة التى تهدئ بال الأم فيتسلل إليها الأمان والاطمئنان على وليدها.

وكان جدى يتمتع بفطرة سليمة وسيرة حياة لم تعرف سوى النية الصادقة المخلصة والعمل الدؤوب لإعالة بناته وولده الوحيد، فقد عاش حياته مسالمًا لم يسع أبدًا فى إيذاء أحد، بل كان كالنسمة التى تلطف حر الدنيا التى تضيق أحيانًا بما يفعله أشرار البشر.. علمته الحياة وتركت فى نفسه بعد كل ما تعرض له أثرًا من حكمة وسهمًا من عقل يستطيع بهما أن يكون صائبًا فى حكمه على الأشياء والأشخاص. وكانت جميع خالاتى فى هذا الوقت لم يتزوج منهن إلا واحدة، وهى خالتى وفاء التى كانت آية من آيات البشر فى الطيبة التى كانت تطبع على وجهها رضًا وقبولًا، وكانت تضفى بجمال وجهها ودًا وحبًا لكل من يقترب منها أو يتعامل معها، وكانت قوية شديدة فى الحق، لذا كان يخافها كل من جار وظلم. وكنت أحبها كأمى، وكانت هى كذلك بقلبها الكبير وفطرتها السليمة وروحها الفياضة الجميلة. رحلت مع زوجها إلى كفر الدوار حيث يعمل فى مصنع الغزل والنسيج الذى كان علامة على ما يقوم به الرئيس جمال عبد الناصر فى هذا الوقت من بناء قلاع صناعية هدمتها يد الخصخصة بعد ذلك.

وأما الباقيات من خالاتى فقد كن يفرشن البيت بالألفة والود، ويخرجن كل ما خفى من أطايب الطعام وزينة الكلام ونور المشاعر،

وكانت خالتى فاطمة هى التى تتولى مهمة الضيافة الفاخرة للوفد الممتاز، وكأنها كانت باهتمامها هذا يخبئها القدر لمهمة عظيمة، بعدما تتبدل الأحوال وتتداول الأيام ويموت من يموت من البشر الذين حملوا أمانة الحياة وتركوها ورحلوا..

إنه يحبو

كان حديث أبى وأمى فى هذه الفترة المبكرة من حياتى يدور حول أن الطفل العادى عندما يحبو فإنه يبدأ بوضع يديه على الأرض ثم ينقلهما ليأخذ خطوة ثم يتبعهما برجليه اللتين تدفعان جسمه إلى الأمام لكى ينطلق. وتبدأ مرحلة أخرى من مراحل تعرفه على العالم حوله عندما يمشى، ويحتاج ذلك إلى أن يحفظ اتزان جسمه بيديه فيفردهما يمينًا ويسارًا، يقع مرة ويثبت مرة حتى يستقيم عوده، فما بال رضا الذى ليس لديه الوسيلة اللازمة للحبو وهى اليدان اللتان للولد العادى، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كيف سيقف ويحفظ توازنه ليبدأ فى المشى وليس هناك ما يحفظ هذا التوازن، وهما يشاهدان أخويه حسن وياسر يعيشان حياتهما طفلين ينعمان بكل هذه الحالات الإنسانية للبشر فى الحياة؟

وكانت المفاجأة التى تقول عنها أمى فى حكايتها وهى تتذكر وعينَىّ فى عينيها - وكأنها قد حدثت توًا أمامها - بشىء من الامتنان لله خالق هذا الولد ومن الفخر بأنه ولدها. لقد رأت أمى أن تترك رضا فى مكان ما بعد أن عرف كيف يجلس ويحفظ توازنه بعد فترة من الوقوع والقيام، وذهبت هى لكى تقضى حاجات بيتها ورجعت فلم تجده فى مكانه وإنما وجدته وقد بَعُدَ خطوات قليلة فعجبت كيف حدث هذا؟ ونظرت فى أنحاء بيتها الذى كل ما فيه غرفتان وصالة صغيرة فلم تجده فى مكانه

وإنما تحرك بعض خطوات قليلة أخرى وحسن وياسر حوله يلعبان، ماذا حدث؟! فتركته وراقبته من بعيد، فإذا به قد اتخذ من المقعدتين وسيلة للحبو وبدأ يتحرك بهما، فكان يثبت كعبىّ رجليه فى الأرض ثم يدفع نفسه وجذعه إلى الأمام فيأخذ خطوة ثم خطوة. وماهى إلا أيام قليلة حتى طاف رضا بالبيت كله بهذه الطريقة المبدعة والجديدة فى الحبو ولم يترك مكانًا فى البيت إلا زاره بهذا الشكل الذى كان وسيلة ابتكرها ولم يرها أحد من قبل ولا خطرت على بال أحد أبويه. لقد كان هذا الموقف حبلًا متينًا من حبال الأمل الذى بدأ ينسل من سماء قدر الله العالية ولمحة من لمحات الفيض الإلهى للبشر عندما يتمسكون بالحلم.

وبعد فترة، حدث مشهد آخر من مشاهد فيلم الحياة لهذا الطفل الذى بدأت أقدار الله تمهد له السبل كما تمهد للطير فى أوكارها كيف تعيش وهى معلقة بين السماء والأرض. تحكى أمى ـ رحمها الله ـ أنه بعد منظر الحبو الآسر كان صاحبنا عندما يريد أن يقف لا يترك نفسه للهواء لفقد الجناحين اللذين يحفظ بهما توازن جسمه ولكن كان يحبو حتى يكون قريبًا من الحائط أو باب من الأبواب ثم يحاول الوقوف، حتى إذا اختل توازنه استند إلى الحائط فلم يقع، ويحاول مرة بعد مرة حتى استقام عوده ووقف دون أن يستند إلى الحائط، وكأنما كان يصنع عوده المستقيم ليقابل أيامه الصعبة.

ثم لما توثق رضا من وقوفه دخل مرحلة المشى، التى بدأها بأن يقترب من الحائط فيكون عن يمينه أو شماله ويبدأ خطوة خطوة، حتى إذا اختل توازنه احتمى بالحائط مرة بعد أخرى كى لا يسقط ثم تابع، وبعد فترة من الوقت حاول فيها ثم حاول ولم يثنه السقوط مرات من المتابعة حتى

أتقن الوقوف ثم المشى.. وها هو يدب بقدميه على كل ناحية من نواحى البيت دون أن يساعده أحد ودون أن يستند إلا إلى رحمة رب لا يخلق عباده سدى، ومستعينًا بإرادة بدأت تتحدث عن نفسها وتعلن فى أرجاء بيت صغير عن ميلاد لحلم عله يصبح حقيقة يومًا من الأيام، وما الحقائق فى الدنيا إلا أحلامًا كانت تسكن فى صدور الحالمين.

تعالوا لتروا...

ومضات الأمل ولو أنها تبدو خافتة فى أول الأمر إلا أن سرها فى النفس الإنسانية له فعل السحر، ذلك أنه ينقلها من حفرة يأس يمكن أن تكون قبرًا للحلم الذى قد يصبح يومًا ما حقيقة فى واقع الحياة والأحياء، وهذا ما حدث لأمى وأبى بعد هذه الومضات التى عاينوها وكانت بمثابة إجابة عن بعض ماكان يدور فى بالهما منذ أيام قليلة، وها هو رضا يجيب عمليًا عن كل هذه الأسئلة الحائرة التى كانت دائمًا تداهمهما، فماذا يا ترى تحمل الأيام القادمة؟ هل سيجيب رضا عن بقية الأسئلة الحائرة فيما يتعلق بباقى شئونه؟ وكيف؟ لكن ما حدث فى الأيام السابقة كان مبشرات لما هو قادم بالطبع..

ويحكى الوالد عن أواخر الستينيات حيث القرية خالية من كل مظاهر المدنية مثل الكهرباء وما يتبعها من وسائل إعلام مختلفة، إلا الراديو الذى تجده عند أصحاب اليَسَارُ من أهل البلدة. والناس فى جلساتهم كانوا يسهرون جزءًا قليلًا من الليل، ثم بعد صلاة العشاء تجد الجميع نائمًا لكى يصحو مبكرًا لصلاة الفجر ولزرعته التى يُطعم بها عياله وبهيمته التى يأخذ منها اللبن فيشربه ويبيعه ليعيش كما يعيش معظم أهل القرية.

هكذا كان شكل القرية فى هذا الوقت قبل أن تستبيحها شاشات تحركها أفكار ورؤى وإيديولوجيات وعقول ودول حولت هذه الطبيعة البشرية للناس من ألَق الفطرة ونورها إلى ظلمة المادة وسُعارها، فلا هم أصبحوا أولاد قرية الستينيات ولا هم أصبحوا أولاد الألفية الثالثة. لقد أصبحوا خليطًا مهجنًا لا معالم واضحة له؛ فالفلاح الذى كان يعتمد فى حياته على ما يزرع أصبح عالة على نفسه وعلى الناس، وأصبحت القرية تعيش حياة المدن بلا إمكانات، فأضحت لاهى قرية منتجة ولاهى مدينة منتجة.

وكان والدى ـ رحمه الله ـ فى هذا الوقت يسهر مع أصدقائه فى مكان فى القرية يسمى «الدوار» لقربه من دوار العمدة، وكانت هذه المنطقة تمثل حوالى ربع القرية مساحة وسكانًا، وتتميز بثراء معظم ساكنيها لوجود عائلة العمدة وعائلة أبو مريم وهما أكبر وأعرق وأغنى عائلتين فى البلد. وهذه المنطقة كانت تحتوى على ملعب القرية الذى شهد لأبى صولات وجولات، حيث كان لاعبًا مهمًا من فريق القرية، وكانوا فى الليل يسهرون بجانب الملعب بجوار بيت صديق عزيز لأبى هو الإمام عبد الخالق، الذى كان ذا نفس طيبة مخلصة خفيف الظل ذا قفشات جميلة ورقيقة.

وفى جلسة من هذه الجلسات التى يكون فيها سمر الأصدقاء وتكون أيضًا محلًا لنقل الأخبار أو تحليلها لما يحدث من الناس، سأل أحدهم أبى سؤالًا صفيقًا وقحًا، قال له: «أخبار ابنك أيه بيقولوا أن الكل يتمنى أن ربنا ياخده!!!» كان الكلام صادمًا ويحمل الكثير من سوء الأدب، ولكن الوالد تمالك أعصابه ورد ردًا سيطر به على الموقف بجرأة المدافع عن قيمة مهمة هذا وقتها ومكانها وشخصها، فقد شبه من يقول كلامًا ليس

عليه دليل واضح بأنه فاسق لابد من أن نتوثق من كلامه وتلى الآية: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا....» وأضاف: هذا الكلام كاذب تمامًا وأن من يردد هذا الكلام يكون شريكًا فاعلًا فى هذه الجريمة التى تؤثر فى نفوس أصحاب الشأن؛ وخصوصًا أم الولد التى يتناهى إلى سمعها هذا الكلام الأخرق وهى لاتتوانى لحظة عن ابنها الذى ترتجيه هو وأخواه من الدنيا، ولكى أثبت لكم أنا أدعوكم لتروا كيف مَنَّ الله على هذا الولد، بحيث يمكن أن يفعل كل ما يفعله الطفل العادى من حبو ومن مشى، وأمه التى تُتهم بأنها تريد التخلص منه هى التى تدفعه لذلك. وهنا قام صديقه الإمام عبد الخالق واعتنقه، وكذلك أصدقاؤه الآخرون، وجاءه من سأل هذا السؤال معتذرًا. لكن كانت هذه الواقعة إعلامًا انتشر فى القرية عن طريق الجالسين فيها لتبشر بمرحلة جديدة لرضا الذى بدأ الناس يتتبعون أخباره. ولما رجع أبى إلى البيت وحكى لأمى ما حدث فرحت بقدر ماحزنت، فرحت لوصول الرسالة قوية من أبى إلى هؤلاء الناس، وحزنت لأن بعض الناس صغرت نفوسهم فلا يمررون ما يسمعون على قلوبهم وعقولهم، وقالت فى نفسها لو الأمر أمرى لصرخت فى كل الناس تعالوا لتروا.

الخروج الأول وإثبات الذات

كان الخروج من البيت وقت أن حملت قدماى جسمى مفاجئًا للناس فى أول الأمر، وكانت العيون تختلس النظرات فى وجود الأم أو الأب وتمعن فى البحلقة والفضول، بل وتقترب حال وجود الطفل وحده،

وبعضهم كان يقترب منه ويلاعبه وهو يراقب حتى لا تغضب أمه التى كانت تخاف عليه فى بداية خروجه. ولأن البيت كان أمام بابه مساحة منخفضة من الأرض، ويحيط بها سور منخفض جدًّا من الطمى، حتى لا تنزل مياه المطر فى البيت، فقد كنت كما حكت لى أمى أستند إلى قائم الباب وأصعد شيئًا فشيئًا حتى أصل إلى سور الطمى فأتمسك به ثم أدفع بنفسى إلى نهر الشارع.

فى هذه السن الصغيرة وفى السنوات الأولى من عمرى أصبحت صديقًا لكل من يذهب أو يأتى من الشارع والمنطقة التى نعيش فيها فى القرية. واطمأنت أمى تجاه أهل الشارع والمنطقة، بل أصبحت أخبار هذا الطفل الذى قد لا تتكرر صورة خلقه كثيرًا حديث القرية، وكان من رَأْى والدى ـ رحمه الله ـ أن يدع لهذا الطفل حرية الاكتشاف لما حوله من أشياء وأن يسلك كيف يشاء ما دامت تحمله قدماه؛ وما دامت ليس هناك خطورة من أن يصيبه مكروه؛ وما دامت أيضًا عينا أمه تراقبانه ولو من حين إلى حين. أما الأم فكانت خائفة عليه وكانت توصى أخويه بألا يغفلا عنه وألا يقعدا عن تلبية ما يريد وألا يرفضا له طلبًا. لكن هيهات، فقد خرج الطفل ولم يستطع أحد أن يجاريه، فهو سريع فى خطوته يقتحم المواقف التى تجعله كل يوم يأتى بجرح هنا وخدش هناك، ولا يدع أحدًا فى حاله، فهو خرج إلى الدنيا ويريد أن يعيش كما يعيش طفل فى مثل سنه، وليس عنده حسابات الكبار من الحيطة والحذر الواجبين عندما يحل الخطر، لذا كان لا بد أن يُرى أثر ذلك فى هذه الحوادث اليومية.

وهنا لابد من التأمل فى قضيتين كانتا متوازيتين طوال حياة هذا الطفل، الذى سيصبح فى قابل الأيام وكما قدرت أقدار الله صوتًا تسمعه

الدنيا، وهى قضية إثبات الذات وقضية رد الفعل من رضا ومن الناس، وهاتان القضيتان يلحظهما كل من تَعَرَّف على هذه المسيرة أو اقترب منها أو عايشها.

فإثبات الذات كان دائمًا هو الشغل الشاغل والهم الأكبر لهذه الشخصية؛ لأنه يرى فى عيون الناس فى أول الأمر أنه عاجز لا يستطيع no cannot، ومن ثم فهذه النظرة المحبطة تولد عنده شعورًا بالتحدى وبأنه قادر I can، ويشحذ فى إثبات ذلك قوى نفسه ويسن لها أسلحته، من عقل وقلب ومشاعر، ثم من أعضاء يسد بعضها نقص بعض، ويبحث عن نقصه الذى يعلمه بالفطرة ويحسه إنسانيًا، ثم يبدأ فى تنفيذ الفعل وهو ممتلئ بالحماس تدفعه الحاجة الإنسانية التى يريد أن يقضيها من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يثبت لمن اتهمه ـ ولو بالنظرة ـ بالعجز. إن هؤلاء لا يعرفون أبعاد إرادة إنسان يُتهم فى إرادته وإنسانيته. وقد كانت الحياة كلها وستظل إلى نهايتها ميدانًا لإثبات الذات، لأنها أصبحت طبيعة لصيقة بصاحبها، صنعتها الأيام والمواقف ونظرات العجز ومصمصات الشفاه ودعاوى الإحباط وسلب الكراسى المستحقة. لذا إذا كانت الحياة صعبة فى هذا السبيل الذى لايخلو من مشقة، لكنها تصبح جميلة ورائعة عندما تثبت الذات الإنسانية أنها جديرة بإرادتها وعزمها وإخلاصها لأن تتوج بتاج الكرامة الإنسانية، هذه هى القضية الأولى.

أما القضية الثانية؛ فهى رد الفعل عند رضا نفسه، وقد أتعبنى ذلك فى رحلة الحياة لكثرة دخول المعارك التى لا تنتهى، وما يصاحب ذلك من صناعة الأصنام ـ المتوهمة أحيانًا ـ من فرط حذره من قادم البشر والأيام ثم تكسيرها. هذا تحليل صديق الطفولة وبداية الصبا والشباب الكاتب

الكبير إبراهيم عيسى حول إصرارى الزائد عن الحد وعدم النوم والقلق والإرهاق تحسبًا لما يمكن أن يأتى من الغير من مشكلات. أعترف أننى قد أتعبت نفسى بسبب من كان لا يريد أن يعطينى حقى فى الحياة. وقد كانت ردود أفعال الناس على أنواع شتى، فمنهم من كان نصيرًا لحقى فى الحياة، ومنهم من انتصرت عليه نظرة العجز المحبطة، ومنهم من وقف كأنه وثن ليس له سمع ولا بصر ولا قلب شهيد، ومنهم من لم يكن عنده إلا شعور متدفق بالحب يصل قلبى بقلبه وحسى بحسه، فأشعر أنه أنا، يريد لى ما يريده لنفسه، وهؤلاء كُثر منْ منن الله على مثلى، وهكذا الحياة لمن وضعته أقدار الله فى هذا الطريق.

ردع الطوبة من الرِّجل الشمال

كل كائن حى يحيا فى هذه الدنيا يصنع لنفسه حدودًا ليأمن فى حياته من المغيرين عليه ومن الذين يريدون أن يفرضوا سطوتهم وسلطتهم على كل من يشاركوهم أمور الحياة، وعندما يفعل ذلك يضمن لنفسه حياة كريمة عادلة آمنة. وفى محيط الإنسان ككائن حى له ميزة العقل الواعى والفكر المتدبر والحس الراقى والقلب النابض بالحياة نجد هذه الحدود هى التى تردع الآخرين من التخطى فى ساحات الحرم الإنسانى، فلكل إنسان حَرَمَه الذى يجب على كل من حوله أن يراعيه ويحترمه، وما الحروب والنزاعات التى تعيشها البشرية منذ خلقت إلا من هؤلاء الذين تخطوا الحدود فقتلوا وسفكوا الدماء، حتى أصبحت صفحات التاريخ مليئة بهذه الفظائع التى يندى لها تاريخ البشرية.

كانت هذه الحقيقة من أهم ماوعيت فى بداية عهدى بالحياة وفى بداية

خروجى للناس وجهًا لوجه، وإن كانت الحدة فى الشعور وفى الفعل أو بالأحرى فى ردة الفعل كانت سمة تمسكت بها طبعًا إنسانيًا فى بداية عمرى، وإن كنت بعد مرحلة النضوج العقلى أصبحت الحدة أقل، ولكن قد يردنى فعل ما لما كنت عليه من حدتى الأولى بل أكثر.. لذلك بدأت أستبدل أعضائى جميعًا بوظيفة اليدين اللتين لا تستطيعان حملًا ولا ضربًا ولا حماية وأنا طفل فى السنوات الأولى من عمرى ومعى أطفال لهم حاجاتهم، فكان لزامًا من أن يضع رضا هذه الحدود وأن تكون عنده خطة ردع لمن تسول له نفسه أن يعتدى، وكانت هذه المشاهد والصور تستدعى عند رؤيتها الصفات التى تجمع جميع الكائنات الحية واللازمة لكى تعيش وتحافظ على حياتها.

من هذه المشاهد، أن الطفل الذى كان يعتدى على صاحبنا وهو يظن أنه ضعيف وأنه لا يستطيع دفاعًا عن نفسه كان يتلقى ضربة قوية من قدمه، ولأن اليدين ليس لهما تأثير يُذكر كان رضا يقترب من المعتدى ويفاجئه بضربة كتف يضع فيها قوة دفع الجسم كله فيسقطه أرضًا. أحس الأطفال من هذه المواقف أن صاحبنا هذا خط أحمر لا يستطيع أحد الاقتراب من جدار حدوده، وكان ـ كما هو معلوم عنه ـ مسالم مع من سالموه، وفى نفس الوقت يتخطى الحد فى العقاب إذا اعتدى عليه أحد، لذا كان له فى نفوس أقرانه مكانة فيها مع الخوف من حدته الود الطفولى الذى يسمح للأطفال بالرجوع إلى بعضهم البعض.

ومن المشاهد والصور التى انطبعت فى أذهان الناس فى تلك الفترة، أنه عندما كان لا يستطيع أن يأخذ حقه ممن اعتدى عليه أو إن كان أكبر منه سنًا أو هيئة أو جسمًا، كان صاحبنا يذهب بعيدًا فيمسك بالطوبة بقوة بالإصبعين الأكبر فى قدمه الشمال ويقذف بها على من يريد عقابه، ولأنه

كان أَعْسَر يجيد العمل بالشمال كانت الطوبة تذهب حيث يريدها فتكون عقابًا لمن يستحق العقاب، ويمكن أن تكون فى إطار مسابقة فى قذف الطوب لأطول مسافة، كل المتسابقين يقذفون بأيديهم وهو بأصبعى قدمه. ويمكن أن تكون الطوبة مرسلة تجاه شجرة الجميز حتى تجبرها على أن تجود بجميزة طيبة الطعم، ويمكن أن تكون لشجرة النبق التى كانت لسيدة عجوز بجوار المسجد. ولا مانع أن تكون الطوبة عقابًا لمن يطيل إليه النظر ويمصمص شفتيه، وهذه كانت إحدى الصور التى تغيظه وتدفعه للانتقام ممن يشعره أنه شخص مختلف، وكان يسأل أمه عندما تريد أن تعاقبه على هذه الفعلة لماذا ينظر إلىَّ بهذا الشكل؟ وعادة لا يكون من يقترف هذا الجرم من أهل القرية، ولكن يكون من القرى المجاورة جاء لقضاء حاجة فأوقعه حظه العسر مع طوبة الرجل الشمال لهذا الطفل.

حريقة رضا

فى السنوات الأولى من العمر، كانت التجربة عندى هى القاعدة التى أعيش بها، أجرب كل شىء، وكنت مقتحمًا، لأن الحياة بالنسبة لطفل بهذا الشكل لابد فيها من المغامرة والتجريب، لأنه لو سكن ولم يتحرك ستدوسه عجلات النسيان، لذا يجب أن يقتحم الأشياء والأماكن التى حوله، ووسيلته فى هذا التجربة.. وكانت التجربة إما تنجح وتؤتى أُكلها ويصبح الفعل واقعًا فى حياتى، كتلك التى تحدثت عنها من وسائل الردع التى تحفظ لى كيانى أمام الأطفال، أو من إيجاد السبل التى تجعل حاجاتى كطفل فى هذا العمر متاحة وممكنة، وإما لا تنجح وأتركها ليأسى من الوصول فيها لما أريد. فمثلًا لم أستطع أن أرتدى ملابسى بنفسى، وحاولت أن أفعل مرة بعد مرة فلم أستطع، لأن ملابسى كانت عبارة

عن بيجامة لها أزرار تحتاج لمن يضع كل منها فى مكانه من الجانب الآخر، وهذه لم أستطع أن أفعلها، وكانت أمى تنهرنى عندما ترانى أحاول أن أرتدى ملابسى، حرصًا منها بالطبع على ألا تسبب لى شيئًا من العنت أو التعب أو الإحباط. وكنت كلما أحتاج الأمر للحمام أو غيره من هذه الأمور أهرع إلى أمى التى كانت أعباؤها كثيرة، لكنها كانت تقدم حاجتى على كل مالديها من أعمال.

وفى تجربة من التجارب كانت النتيجة كارثة كادت أن تودى بالبيت وما فيه ومن فيه. قصتها أننى كنت أرى أمى تشعل أعواد الكبريت لتوقد بها ما عندنا من وسائل، كوابور الجاز الذى يُطهى عليه الطعام أو الكانون الذى كان يستخدم فى طهى «الزَفَر» كل أسبوع أو كل أسبوعين أو الفرن الذى يُخبز فيه العيش الذى يُعَد عمودًا لكل بيت من بيوت القرية. وكنت أرى أمى ـ رحمها الله ـ وهى تشعل عود الكبريت فتحك العود بسرعة على مكان خشن فى علبة الكبريت فيصنع شعلة اللهب، فغافلت أمى وأخذت علبة الكبريت وانتحيت جانبًا من داخل الدهليز، وهو صالة البيت الصغيرة، بحيث لايرانى أحد، وأمسكت بالعلبة بإصبعىّ يدى الشمال التى أحس أنها أقوى من اليمنى وأن أصبعاها الاثنان أشد من اليد اليمنى بأصابعها الثلاثة، وهذا أدركته تمامًا منذ أن وعيت وتعرفت على أعضاء جسدى. حاولت فتح العلبة بأن أمسكتها بفمى، وحاولت أن أخرج الكبريت فلم أستطع، فتركتها، لكنى لم آيس من المحاولة، فأخذتها ثانية وأخفيت نفسى عن عينى أمى وقلت بينى وبين نفسى فلأجرب رجلاى فى هذا الأمر، وفعلًا وضعت العلبة على الأرض وأمسكتها بين الإصبعين من رجلى الشمال، ثم بإصبع من رجلى اليمين زحزحت الدرج

الداخلى الذى به الأعواد حتى ظهرت، وأسقطت العلبة فنزلت بعض الأعواد على الأرض، فأعدت العلبة إلى حالها الأول وأمسكت بأحد عيدان الكبريت بأصبعى رجلى الشمال، وثَبَّت العلبة ثم حككت العود فى جانبها، فإذا باللهب يشتعل فى العود ثم ينطفئ، فأجرب غيره، ولأنها أول تجربة ظل العود يلسعنى كلما أشعلته، وظللت هكذا عدة مرات، حتى أمسكت بى أمى وحذرتنى من ذلك.

وتحت ضغط الأم والخوف من أن ترانى والبيت ضيق وحتمًا سوف ترانى، فكرت أين المكان الذى لاتتصور أمى أن أكون فيه كى أجرب دون أن ترانى، فلم أجد إلا السطح الذى كان عبارة عن تلال صغيرة من الحطب ومن روث الحيوانات اليابس لاستخدامه كوقود للفرن، وجلست موليًّا ظهرى لحائط الغرفة التى على السطح وكنا نسميها المقعد، ووجهى تجاه الأسطح التى على مرمى الأفق، وأخذت أعيد إشعال الكبريت دون أن يرانى أحد، وظللت أجرب حتى أشعلت العود تلو العود، ثم هممت بالنزول. وعندما نزلت إلى ساحة البيت رأينا من يأتى وهو يجرى مسرعًا إلى داخل البيت وينادى على أمى «حريقة حريقة».

والحريقة فى هذا الوقت كانت كارثة، لأن البيوت كانت من الطوب اللبن «النىء» والنار لابد لإطفائها من الماء وبالتالى فإن الحوائط ستنهار. أخذ الجميع كعادة أهل القرية يهرولون، فمنهم من يحاول إطفاءها بجوال، ومنهم من يأتى بالماء، ومنهم من يقف لكى يُسَلِّم من يقذف الماء، والنساء ترفع أصواتهن لكى يتجمع الناس لأطفاء الحريق. وفى هذه الأثناء جمعونى أنا وأخواى حسن وياسر خارج البيت، وجاءت الحاجة لبيبة أم الحاج حافظ الفلاح، هذه السيدة التى شارفت على الثمانين من

عمرها، واشترت بعض الحلوى وأجلستنا حولها والناس تحاول أن تطفئ هذا الحريق. وأثناء هذه الأجواء المشحونة والنار المشتعلة والأم تصرخ والناس تحاول إطفاء النار، وكان الكل يهمس: ما سبب هذه النار؟ وتسأل الحاجة لبيبة إحدى النساء عن سبب هذه النار فتقول إحداهن إن هذه النار هى إهمال من أم الأولاد.

وهنا ينطق رضا بالعجب الذى أسكت الجميع وأدهشهم ليبرأ أمه وأدان نفسه واعترف بتفاصيل الجريمة، وحكى أمام الجميع تفاصيل ما حدث، وأنه قد ترك النار مشتعلة ونزل وظن أنها ستنطفئ، وهنا جحظت العيون وارتسمت علامات التعجب الكبيرة على الوجوه وسمع رضا مالا يسره، فتركهم وأطلق لرجليه العنان بعيدًا عن ملاحقة العيون وبعيدًا عن غضب الوجوه وبعيدًا عن وجه الأم التى حرك صراخها القلب من مكانه. ولكن مع ذلك، الله سلم، فالحريق لم يأت إلا على الحطب فقط، وباب المقعد أصابه بعض التلف من الحريق لكنه مازال واقفًا مكانه، ولم تمس النار باللهيب شيئًا من البيت ولا من غرفة المقعد، وصاحبنا هرب إلى مكان غير مكان الساحة التى يلعبون فيها أمام البيت وانتظر أن يأتى والده، ويا ترى ماذا سيصنع معه؟

كان الحريق فى الصباح وجاء الوالد بعد صلاة العصر، وأرسل أخويه لكى يأتيا به، فجاء منكسًا رأسه ووالده يتفقد آثار الحريق، فلما رآه ضمه تحت يمينه أولًا حتى يذهب ما به من خوف ثم قال له: احك لى ماذا حدث، وكيف فعلت هذا؟ ومن أشعل النار؟ فلما أحس صاحبنا بالأمان أخذ يحكى بالتفصيل ماذا حدث، ولم يكن الأب يعلم أنه يستطيع أن يشعل الكبريت فلفه العجب وأخذته الحيرة؛ من عَلْمَك؟ أين رأيت هذا؟ فأجاب بما كان من مراحل حتى أشعل الكبريت. هنا دار حوار بين

الأب وابنه، هذا الحوار علمنى مدى حياتى أن أنظر إلى نتيجة ما أفعل، وأن أحتاط لنفسى، وألا أضع نفسى مرمىً لكلام الناس، بَيّن لى أبى أن أتبين نتيجة الفعل، وإذا أردت أن أجرب فليكن الاحتياط حتى لا أؤدى إلى كارثة، وهدد أنه يمكن أن يضربنى لكن سيعطى لى الفرصة، وضمنى إلى يمينه مرة أخرى، وكان كثيرًا ما يتندر بالموقف طوال حياتى معه على سبيل الفكاهة.

هذا الموقف من أبى ـ رحمه الله ـ كان من المواقف التى لا أنساها، لأن الرجل سلك معى فيه سلوكًا تربويًا غايةً فى الرقى رغم صغر سنى، لأنه كان يعلم أننى أنتظر علقة ساخنة لهذا الفعل، فأراد أن يجعلنى وأنا فى هذه السن أحس بالندم الذى يجعلنى لا أعاود أبدًا الرجوع إلى هذا الفعل ولا الرجوع إلى وضع نفسى فى هذا الموقف المهين أمامه وأمام أمى وأمام الناس التى أخذت عيونهم تنهشنى تعجبًا وازدراء، وقد خرجت من هذه الواقعة بمكسب نفسى كبير، ولو أن خسائرى مع الناس كانت ثقيلة لكن لعل الأيام تعقد الصلح بينى وبينهم.

إنه يركل الكرة...

منذ سنوات العمر الأولى، كان النزوع الدائم للحركة التى اتخذت أشكالًا وصورًا شتى. وكانت حركة رضا فى البيت لا تهدأ، وتتسبب أحيانًا فى مشكلات تتطلب العقاب بأنواعه المختلفة، الذى غالبًا ما يكون تهديدًا بأشياء لا يستطيع أن يستغنى عنها مثل عدم الخروج والمنع من اللعب وهذا عقاب شديد لا يُحتمل، وقليلًا ما يكون العقاب الضرب ولا يحدث إلا عند الاعتداء منه على الآخرين. وكانت حركته بين الأولاد

فى نفس العمر أو أكبر أو أصغر فى السن محاولة منه لإثبات الذات كما قلنا، وليقول للجميع إننى لست أقل عن أحد.

وكان من الألعاب التى يلعبها ولا يمنعه عنها مانع لعبة تسمى «السبع طوبات»، توضع فيها سبع طوبات فوق بعضها ثم يحاول واحد من الفريق ضرب هذه الطوبات بكرة صغيرة فى يده، فإذا أوقع الطوبات فر من فوره وجرى وراءه واحد من الفريق الآخر ليضربه بالكرة، فى الوقت الذى يحاول أصحاب الأول وضع الطوبات كما كانت، فإذا وضعوها قبل أن يصل إليه بالكرة فإنهم يعيدون الكَّرة مرة أخرى، إما إذا وصل إليه بالكرة قبل أن يعيدوا رص الطوب فإنهم يتولون أمر الطوبات السبع. وكنت من نجوم هذه اللعبة، وكانوا يستخدمون أيديهم فى ضرب الطوبات بالكرة حتى تقع، وكنت أنا أستخدم رجلى، وكنت قليلًا ما أخطئ، وكنت أُسرع فلا يكاد يلحق بى أحد.

ولا شك أن المشكلة فى هذه اللعبة وفى غيرها كان كيف يتم استبدل عضو بعضو آخر، وكانت المشكلة تثار فقط فى البداية وعند الاختبار، فكان السؤال الطبيعى: كيف؟ وماهى الوسيلة؟. كنت أجهز نفسى تمامًا وأشحذ ذهنى وأعقد العزيمة بعد التأكد من الوسيلة ومنطقيتها رغم صغر سنى، لعلها طبيعة الإنسان عندما يريد أن يحيا كما يحيا غيره، فهو فى بحث دائم بفطرته وقلبه وعقله وحسه وشعوره عن الحل لذا كانت النتيجة غالبًا ما تكون مرضية، ويتعود الجميع على الاختلاف، بمعنى استبدال عضو بعضو آخر ما دامت النتيجة واحدة ولا تختلف.. وهذا فى نظرى ما مكن الصبى من دخول عالم الحركة مع عدم وجود الجناحين كاملين، لأنه كان يحسب لكل حركة حسابها.

واللعبة الأخرى التى مارسها الصبى كانت «العدو من مكان إلى مكان»، وهذه عندما أتأملها الآن يصيبنى العجب حيث كنت أفوز مرة وأخفق مرة، ومثار العجب أن الطبيعى أن يفوز من ينافسنى فى العدو دائمًا لأنه يستخدم يداه فى دفع نفسه إلى الأمام فى الوقت الذى ليس لى فيه هذه الوسيلة، ومع ذلك كنت أحيانًا أفوز! ولا يمكن تفسير ذلك إلا بأننى كنت أبذل أضعاف جهده لكى أعوض هذا النقص. وهذه كانت إحدى الصفات التى أصبحت لصيقة بى، نعم كانت مصدرًا للعنت والتعب فى حياتى لكنها فى نفس الوقت كانت شعورًا بالرضا لا يحسه بهذا الشكل وفى هذه المواقف إلا من على شاكلتى.

لكن تاريخى مع الكرة يجعل القصة مختلفة بعض الشىء، لأنى كانت فيها نجمًا يشار إليه بالبنان، ولأنى بلغت فيها مبلغ الذى عشقته الكرة فلانت ودانت له وأطاعت كل ما يأمرها به. وتبدأ الحكاية منذ سنوات العمر الأولى، حيث الكرة هى أهم لعبة كان الأطفال والشباب والكبار يلعبونها، وكان يلهب ذلك مباريات الكرة التى كان يتابعها الصغير والكبير. وكانت ساحة شجرة الجميز هى الملعب الذى يشهد التنافس الحماسى فى المباريات، وبدأت الكرة أولًا فى صورة الكرة الشراب التى كانت عبارة عن بالونة متوسطة الحجم وتملأ بالهواء وتربط من العنق رباطًا محكمًا، ثم تلف ببعض الخرق الخفيفة، ثم تعصب بخيط يمسكه أحدهم بين أصبعيه حتى تبدو الكرة مدورة لانتوءات فيها، ثم توضع فى فردة شراب ليركلها اللاعبون كُلٌ حسب مهارته. ثم تطورت الكرة إلى الكرة الجلد التى أخذت الشكل المعروف للكرة الآن، فهذا مدافع يحفظ مكانه، وهذا مهاجم يراقص بالكرة حتى تمر فى طريقها لإحراز هدف،

وهذا حارس مرمى يطير فى الهواء لكى يحافظ على مرماه نظيفًا دون أن يهز شباكه هدف.

وكانت أول مرة أركل فيها الكرة فى سنوات عمرى الأولى مع أبى ـ رحمه الله ـ لأنه كان لاعبًا كبيرًا فى هذه الرياضة، وكنا دائمًا ما نذهب معه إلى الملعب فيضع الكرة ويقول لى «شوط»، فأستجمع قوتى وأركل الكرة. ومن هنا بدأت علاقتى بالكرة التى كانت مجالًا آخر لإثبات الذات، ففى خلال سنوات قليلة كنت مع الكرة أشبه بالساحر الذى يعلق الكرة برجله فلا تفارقها، لدرجة أننى فى مرحلة متقدمة كنت أضع الكرة على قدمى الشمال وأضربها ضربات خفيفة تجعلها تعلو وتهبط حتى أطوف حول الملعب كاملًا وهى على قدمى كأنها مأمورة لاتغادره. وكنت أضع الكرة على رأسى وأضربها لتعلو ثم ترجع إلى رأسى وتستمر كذلك مدة طويلة فى مشهد كان يجذب إليه كل من يشاهده، خصوصًا أن من يفعل ذلك هو هذا الولد الذى رغم صورته تلك فإنه يحفظ توازنه ويبقى الكرة بهذا الشكل حتى يبدو أنه هو وهى فى اتفاق على أن تطيعه ولا تفارق مكانها.

هذا إضافة إلى المباريات التى كانت ملتهبة، حيث الدورات التنافسية بين الفرق وحيث البلاد تتجمع فى مكان واحد، ويكون هذا اليوم يومًا للتنافس ينتهى بحصول البلد الفلانى على كأس الدورة. وكنت أحد اللاعبين لهذه الفرق، وكانت الدورات الرمضانية التى تقام على ملعب الساحة فى مدينة قويسنا وهو مقر لمركز شباب قويسنا. وكانت المباريات تبدأ من بعد صلاة التراويح إلى ساعة متأخرة من الليل، وكنت مع فريقى نجومًا يأتى زملاؤنا ومحبونا للمؤازرة والتشجيع، وكانت

خماسية أو سداسية، وكانت تُظهر مهارات اللاعبين لأن الملعب ضيق ويحتاج للنجم الذى يستطيع الوصول للمرمى بسهولة. وكثيرًا ما كان يضربنى مدافع لأننى دائمًا أنتظر الكرة فى منطقة جزاء الفريق المنافس، وكنت عندما تأتينى الكرة أحاذر من ضياعها، فهى إما لزميل لى بجانب المرمى أمررها غالبًا من وراء المدافعين فى لمحة عين وإما فى التحام مع المدافع أحاول أن أمر منه لأحرز الهدف. وكنت صاحب لعبة اشتهرت بها فى كل الملاعب وكان كل لاعب يدخل علىَّ يحذر منها، إذ تجعل الناس تضحك عليه لسرعتها الشديدة ولأنها إذا نجحت تحرز هدفًا محققًا. لقد كنت عندما تأتينى الكرة أحاول أن أخدع المدافع كأننى سأمررها لزميل لى، لكننى أدفع جسمى بعيدًا عنه قليلًا ثم فى أقل من ثانية أحمل الكرة فوق قدمى وأقذف بها من فوقه فيضحك عليه الناس فى اللحظة التى أنفرد فيها بحارس المرمى ويكون الهدف.

وفى مرة، كانت آخر مرة ألعب فيها هذه اللعبة فى قرية مجاورة لنا اسمها كفر وهب، وعندما تركنى المدافع وظننت أننى سأمر منه، إذا به وقد اطمئنت الكرة على صدرى يلف جسمه ويطلق رجله فى صدرى ويضربنى ضربة المنتقم، فكدت وقتها أن تخرج روحى، لقد كان فى الحقيقة كان يريد أن يحفظ كرامته الكروية، فهو يعلم أننى سأخدعه وهو لا يستطيع دفعًا إلا بهذا الشكل العنيف، فنال علقة ساخنة من كل المشجعين لى من قريتى وهم كُثرُ وجاء واعتذر لى. لكن رغم ذلك كنت أحتاط لنفسى، فكان الالتحام مع الخصم قليلًا جدًّا، وإنما أصل إلى المرمى بالتمريرات الذكية دائمًا.

وظللت ألعب الكرة فى صباى، وكنت ضمن فريق المدرسة

الإعدادى، وأذكر الأستاذ «ظريف ميخائيل» الذى كان شديد الأدب معنا وكان يشجعنا على الرياضة بأنواعها وكان يحثنى دائمًا على تجنب الالتحام حتى لا يدفعنى أحد، وكان معجبًا جدًّا بكونى لاعبًا للكرة. وظللت كذلك فى المدرسة الثانوى وفى فريق كلية الحقوق. لكن اهتمامى بالكرة بدأ يقل فى الكلية، لأننى بدأت أنظر إلى مستقبلى العلمى الذى كانت بوادره قد اتضحت فى حصولى على المركز الثالث فى السنة الثانية للكلية، فبدأت أعرض عن لعب الكرة وبدأت أشعر أن هذه فترة من حياتى يجب أن أتجاوزها.

هكذا كانت فترة ركل الكرة فى حياتى فترة ثرية جدًّا، لأننى عشت فيها كما يعيش أى طفل أو شاب عنده موهبة للتحكم فى الكرة دون النظر إلى ما يراه الناس من عجز لم أره أنا، بل كانت لعبة الكرة وما شهدته الملاعب من مهاراتى تتضمن تجاوزًا لكل المعوقات من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت ضربًا للمثال فى الإرادة عندما تصر أن يعيش صاحبها كما يعيش أى شخص عادى، وثالثًا كانت زرعًا لبذور الثقة فى نفسى؛ أنك حينما تدرس ما أنت مقدم عليه جيدًا وتسبر أغوار أبعاده المختلفة ثم تقرر أن تخوض التجربة فلتفعل ولا تخف من عيون الناس فإنك ستنجح حتمًا.

يد بديلة وستيفن هوكنج

طفل فى مقتبل حياته بلا ذراعين، يداه كل واحدة منها لا تزيد على بضعة سنتيمترات قليلة، تنتهى اليمنى بثلاثة أصابع وهذه اليد يصعب تحريكها إلا بتحريك الكتف، واليسرى تنتهى بإصبعين وهذان الإصبعان

هما اللذان يفعلان ما يقدران عليه، فهما يحملان بعض الأشياء ويمكن أن يمسك بهما قطعة خبز، يخفض رأسه قليلًا حتى يستطيع أن يلتقطها من بينهما، ولا مانع أيضًا من أن يطيح هذان الإصبعان مع اليد على وجه من تسول له نفسه الاعتداء أو مجاوزة الحد.. وهكذا كانت الصورة التى بدت أمام الأب فكان لابد من أن يبحث عن وسيلة طبية أو ما كان شائعًا وقتها من يد صناعية تعلق فى كتف الطفل يحاول من خلالها أن يعيش حياة طبيعية أو أقرب إلى ذلك.

وأذكر وأنا فى سنوات عمرى الأولى أننى سافرت كثيرًا مع الوالد ـ رحمه الله ـ إلى القاهرة للعرض على أطباء فى هذا المجال، فكان الرد أنه يمكن تركيب أجهزة تعويضية لكن لا تصلح له الآن، لأن جسمه مازال فى طور التشكيل ولا يستطيع أن يحمل هذا الجهاز، وسوف يكون حملًا ثقيلًا عليه. وأذكر أن الوالد فى هذه المرحلة الأولى من العمر كان لا يتوانى عن السؤال والسفر إلى الأطباء فى مصر كلها.

وسعى والدى لتخطى كثيرًا من العقبات بالنسبة لحاجاتى الأساسية، كحاجتى إلى إطعام نفسى حيث أمسك الملعقة بإصبعى يدى اليسرى وأملؤها بما أريد من طعام، وبحث لى أبى عن ملعقة طويلة نسبيًا حتى أتمكن من بلوغ ما أريد على طبلية الطعام، ومازالت هذه الملعقة تنتقل معى من مكان إلى مكان حتى استقرت فى بيتى بعد الزواج وإلى الآن. وكذلك الساندوتشات التى أمسك بها كما أمسك بالملعقة وأخفض رأسى قليلًا حتى أكون فى مستوى يتيح لى أن أطعم نفسى ما أريد من طعام بيدى.. ومن المشاهد والصور التى لا أنساها حين كنا نذهب خارج البيوت لكى نأكل التوت الأسمر والأبيض، فكنا نقذف الطوب

على الشجرة فينزل التوت فيهرع إليه الجميع، فاخترعت طريقة أستطيع بها أكل حبات التوت بعد أن أنظفها بأن أمسك بحبة التوت بين إصبعى قدمى الشمال بحيث لا تنفرك الحبة ثم أرفعها فى مستوى الفم ثم أقوم بنفخها قليلًا قبل أن أمسك بها بشفتى ثم أحاول تنظيفها مما يكون قد علق بها من ذرات التراب ثم أقذفها فى مجرى فمى بالهناء والشفاء. وكان أقرانى يعرضون علىَّ أن يجمعوا لى بعض التوت فكنت أرفض فقد حملت نفسى بنفسى وكفيت نفسى بنفسى، كل هذا قد جعل التفكير فى أجهزة تعويضية لليدين غير مجد، وهذا لم يكن تقصيرًا ولا تكاسلًا، وإنما الأمور كانت مدبرة بحيث أصبحت الحاجة إليها قليلة، فالحياة تسير بسهولة ويسر دون أية عوائق اللهم إلا أشياء قليلة فى الملبس وقضاء بعض الحاجات التى يستحيل قضاؤها إلا بالمساعدة.

وهنا أتوقف قليلًا عند شخصية العبقرى العالمى وأحد أكبر فيزيائى العالم «ستيفن هوكنج» الذى يجلس على كرسى متحرك منذ سنوات بعيدة.. وما أريد أن أتوقف عنده ويتصل بموضوعنا أن الرجل هيأت له التقنية العلمية والتكنولوجية أدوات تساعده لكى يصل إلى ما وصل إليه. فهذا الرجل منذ أن أصيب بهذه الإعاقة وكل شىء مهيأ له للعمل وإجراء الأبحاث وكتابة الكتب وإجراء اللقاءات، حتى إن صوته لم تخرجه أحباله الصوتية فإذا بجهاز كمبيوتر يستطيع أن يكتب له من خلال عينيه ما يريد، ثم ينطق جهاز الكمبيوتر بالكلام الذى يريده ستيفن هوكنج. وهكذا يشارك التقدم العلمى الإنسان فى نجاحه إن صح القول، شريطة أن يأخذ بأسبابه.

لذلك كنت أرى أن حياتى وحياة من هم مثلى وفى نفس هذه الظروف

كانت ستكون أقل كلفة وأكثر راحة وأرحب إنسانية إذا كانت قد أتيحت لنا هذه السبل التى تمكننا من أن نتجاوز الكثير العوائق الحياتية والأشياء التى تبدو مستحيلة وأيضًا تجاوز البشر الذين يكونون بلا قلب أحيانًا، فلا يمد إليك حبل نجاة ولا يترك كلمة فى طريقك تكون نورًا يهدى إلى أمل قادم فى تلك الأيام الصعبة التى عاشها كل من له هذه الحياة. وعلى الرغم من تخطى العقبات الكبيرة والكثيرة فى حياتى دون الاستعانة بأحد هذه الأجهزة ألا أننى رغم ذلك أتمنى أن تتاح هذه الأجهزة لكل من له نفس الظروف وأن تيسرها له الدولة، وهذه لعمرى من أبجديات وظيفة الدولة تجاه مواطنيها إعمالًا لميثاق حقوق الإنسان الذى يفرض على الدول رعايتهم، وهذه من أخص حقوق الرعاية.

وقبل أن أختم هذه الفكرة أحكى هذه الحكاية: اتصل بى صديق وقال لى إن طبيبًا كبيرًا قد عرض أن يصنع لك جهازًا تعويضيًا ليديك بعد أن سردت له قصتك، وهو يريد أن يراك، فراقت لى الفكرة وذهبت إليه وعرض على وجهة نظره وتحمست قليلًا، وبعد أن ذهبت إلى البيت وتصورت نفسى وشكلى فى هذا الجهاز الذى قال لى إنه سيكون ثقيلًا بعض الشىء لكن إمكاناته قد تغنيك عن القليل الذى تحتاج فيه إلى الناس، فخلعت قميصى ووقفت أمام المرآة ونظرت إلى نفسى، وقرأت فى وجهى وجسمى ويدى القصيرتين أن ثلاثة وخمسين عامًا قد مرت من عمرى أكرمنى الله فيها بفضله وكرمه، فقلت بينى وبين نفسى قبل أن أغادر المرآة «آه لو جاء العرض فى مقتبل العمر لكان الوضع مختلفًا». وأمسكت بالتليفون؛ ألوه يا دكتور أشكرك وأعتذر عن قبول العرض، لأننى سأكمل حياتى بيدى اللتين عاشتا معى وعشت معهما وسأنهى حياتى وهما معى وأنا معهما، يا سيدى شكرًا جزيلًا.

أبو الريض

كانت علاقتى بوالدى ـ رحمه الله ـ بمثابة العروة الوثقى التى تربط على حياتى برباط الأمن وتمنحنى جدارًا من الثقة لا أجده إلا عنده، وتلهب عندى حماسة الوصول إلى ما أريد وما يتمنى هو لى مما يرى أنى قادر على تحقيقه والوصول إليه، ويشحذ عقلى بما يطيقه من الفكر. وبالإضافة إلى ذلك كانت الزاد الروحى الزاخر الذى ينقله لى بشخصه فى البيت والمسجد وبقراءته الدائمة للقرآن أمامنا فى البيت. كل هذه الصور شكلت علاقتى بوالدى ـ رحمه الله ـ الذى آمن بى إنسانًا يستحق أن يعيش كما يعيش البشر، ووقف معى لنشكل معًا نحن الاثنين فريقًا ندافع أحيانًا ونهاجم أحيانًا ونحرز الأهداف كثيرًا، لكن فى بعض الأحيان كانت تغلبنا أعاصير البشر فلا نيأس ونحاول بلا ملل. وهكذا نشأت تلك العلاقة التى تحمل داخلها علاقات كثيرة؛ فهى علاقة أبوة يكون فيها الأب الحانى أحيانًا الصارم والحاسم أحيانًا أخرى، وعلاقة صداقة يفضى فيها الصديق إلى صديقه. فكثيرًا ما حكى لى حكايات طفولته فى حى إمبابة وعابدين، وحكايته مع أبيه حسن الطويل الثرى الذى كان مضرب المثل فى زمانه سواء فى إمبابة حيث كان يسكن أو فى قريته التى غادرها والذى توفى وابنه فى فترة الصبا، وأمه التى قامت عليه ورعته وجاءت به إلى القرية بعد وفاة أبيه، وحكايات دخوله الجيش وفترات المناوبة مع زملائه فى الصحراء الواسعة التى كان فيها الرمل الذى تحمله الريح العاصفة وهو يلهب رجليه العاريتين حيث كان يلبس شورت فى بداية التحاقه بالجيش، وزملاؤه فى هذه الفترة، ورأيه فى جمال عبد الناصر الذى خُدع فيه بعد ما حدث فى نكسة 1967، حكايات كثيرة من حكايات الصديق لصديقه.

وكنت أشعر وأنا أسير مع أبى أنه فى غاية الفرح، وكأنه يريد أن يؤكد بالصورة والموقف كم هو معتز بهذه الأبوة لهذا الولد الذى قد يظن من ليس له قلب ولا مشاعر أنه عبء عليه أو أنه يريد أن يتخلص منه كما كان يقال. وما أعجب ما أقرؤه اليوم فى الصحف عن بعض الآباء والأمهات الذين يخفون أولادهم الذين ولدوا بنقص ما فى أعضاء أجسادهم إخفاءً قسريًا ويدخلونهم سجنًا أبديًا ويرمون عليهم ستائر نسيان كثيفة، حتى يصبح الواحد منهم كأنه ميت وهو على قيد الحياة، أى قلوب هذه!!! وأى مشاعر تلك التى تحكم بالموت على من أراد الله له الحياة!!

وفى الحقيقة عندما أذكر أبى وأمى وكيف كانت معاملاتهما معنا نحن الثلاثة، أخى حسن الكبير والذى يليه ياسر ثم أنا أدرك كيف تكون الفطرة الإنسانية عندما تستقيم وتطهر ولا يصيبها دنس ولا يلحقها طمع ولا تُزوِّرها دوافع الشر وتبقى على خلقتها الأولى نقية صافية، فإنها لا تفعل إلا الخير ولا تبتغى إلا الصلاح للإنسان أينما كان زمانه ومكانه وكيفما كانت العلاقة التى تربطه بأخيه الإنسان.. فالأم رغم مشاغلها التى لا تنتهى حتى تسقط نائمة فى آخر النهار، إلا أنها فى المعاملة تكون فى منتهى الطيبة والحنان ومنتهى الحسم أحيانًا، وإن كانت فى كثير من الأحيان تتراجع أمام دمعتين من أحدنا.. وأما الأب فكانت معاملاته معنا دروسًا عملية فى التربية سواء فى قول يبين المراد منه، أو فى حرص منه على الصلاة فى المسجد وحرصنا بالتالى معه على ذلك دون أمر مباشر منه إلا إذا وجد تكاسلًا، والمساواة بيننا فى المعاملة، فالثواب لمن أحسن وأجاد والعقاب لمن أساء أو أخطأ. وكان لاعبًا كبيرًا فى الملاعب وكان معروفًا بأخلاقه الطيبة فى الملعب، فهذه كانت درسًا تربويًا عمليًا تعلمنا منه بعد أن شهدتنى الملاعب ألاعب الكرة وأركلها وأمررها، ومعها ألتزم بكل ماتعلمته من أبى أخلاقيًا داخل الملاعب.

ومن أظهر الدروس الرائعة فى شخصية أبى ـ رحمه الله ـ إحساس كل منا نحن الثلاثة بأنه قريب إلى قلبه، وكان لكل منا اسم يدللنا به، فحسن «أبو على»، وياسر «أبو اليسر»، أما رضا فكان اسمه «أبو الريض». وكان يناديني بهذا الاسم أمام الناس وفى البيت وحين دخوله من عمله، ظل يناديني به حتى توفاه الله رحمة الله عليه. وكان كثيرًا ما يحكى لنا ماذا حصل فى يومه، خاصة أنه كان يسافر بالقطار وكان يأخذ فى يده كرسيًا من الحديد يفتحه ليجلس عليه طول الطريق، ويحكى قصصًا عن زملاء القطار وعن أصدقائه فى المعهد الفنى للقوات المسلحة حيث استقر به المقام، وكيف كانوا يمثلون أسرة مع بعضهم البعض، ويحكى عن مسئوليته عن الرياضة فى المعهد وعن رياضة العدو التى كان يعشقها بجانب الكرة وحقق فيها بطولات على مستويات كبيرة، سواء فى الجيش أو فى المسابقات المدنية والميداليات التى حصل عليها ومازالت تملأ أدراج بيتنا القديم. وكان كثيرًا ما يقول لنا ونحن صغار ـ ليذكرنا ـ أننا أعز ما يملك فى حياته، وأن الله إذا كان قد كتب عليه ألا يكون له أخ فى الدنيا فإنه قد من عليه بأن جعل له ثلاثة إخوة. هكذا كان يفيض علينا من روحه وينشر علينا أثواب عطفه الجميل وينثر فوق رؤوسنا حبات نبل وكرم وود، لا تراه ولا تسمع به إلا عند الطيبين من عباد الله الذين لا يريدون إلا رضا الله مختومًا به على قلوب ووجوه أبنائهم.

كانت هذه الفترة تمهيدًا لدخول معارك حامية من أجل البقاء، فإما أكون أو لا أكون، إما إنسان له حق الحياة الكريمة وإما كم مهمل ملقى فى زاوية من زوايا حياة البشر لا قيمة له فى الحياة ولا نفع منه لنفسه ولا للناس.. ترى أى حياة له ستكون؟